الفصل الرابع - الدرزية :
مسلك الموحدين و التوحيد

الدرزية هو الاسم الذي عرف به "الدروز" خلال تاريخ وجودهم الطويل . وهذا الاسم لم يختاره الدروز لانفسهم بل أطلق عليهم غصبا عنهم وكرها .
تنسب هذه التسمية التي لم يختارها الدروز لأنفسهم ، كما قلنا :
= إلى حسين الدرزي ، أحد أوائل مؤيدي الدعوة الدرزية في مصر.
= أو إلى أحد القادة العسكريين الفاطميين ، انوجور أبي منصور انوشتكين الدرزي .
= أو إلى محمد أبن إسماعيل الدرزي ، ذلك الداعي الكبير الذي يعتبر من أوائل الرواد في الدعوة الدرزية .
يفضل الدروز أن يسموا أنفسهم بالموحدين ، لأنهم يعتبرون مذهبهم مذهبا و مسلكا يدعو إلى التوحيد و ممارسته دينيا واجتماعيا و زمنيا .

أولا- النشأة الدرزية :

علينا أن نعود- تاريخيا- إلى أوائل القرن الحادي عشر الميلادي و- جغرافيا- إلى الدولة الفاطمية في مصر و عصمتها القاهرة - الفسطاط . حيث ظهر في تلك المدينة العريقة ثلاثة رجال أعاجم من غير العرب ، بل من الفرس ، هم :
1= حمزة ابن علي ابن احمد الزوزني الملقب باللباد .
2= حسن ابن حيدرة الفرغاني الملقب بالاخرم .
3= محمد ابن إسماعيل الدرزي الملقب بنشتكين .
وكان الوقت وقت خلافة الحاكم بأمر الله ، الخليفة الفاطمي السادس الذي جلس على سدة الخلافة الفاطمية من العام 996 إلى العام 1021 للميلاد . فتقرب هؤلاء السادة الثلاث من بلاط الحاكم و تعرفوا عليه ، وكان أن بدءوا بالدعوة إلى مسلك التوحيد ، ذلك المسلك الذي تحول مع الزمن و التاريخ حتى اصبح فرقة - طائفة من تلك الفرق التي ظهرت على مسرح الوجود في العالم الإسلامي ، مستمدة جذورها من الوجود الشيعي الذي كان في أوج صعوده ابان الحكم الفاطمي في شمال أفريقيا و مصر أولا ثم في معظم أنحاء الشرق العربي ثانيا .
لقد كان محمد ابن إسماعيل ، الدرزي لقبا، حسب ما يقول و يعتقد كثير من الباحثين ، أول داعية من دعاة الرسالة الجديدة ، إلى درجة أنها تسمت باسمه . فاصبح مسلك التوحيد الذي نحن بصدد دراسته يسمى : مذهب الدروز أو المذهب الدرزي ، هذا على ما يقول هؤلاء الباحثون و الدارسون .
غير أن المؤرخين يختلفون فيما بينهم على من يكون من هؤلاء الدعاة الكثر أول البادئين بالدعوة إلى المسلك الروحاني الجديد : مسلك التوحيد و مذهب الموحدين .
المهم في الموضوع هو ، أن الخليفة الفاطمي السادس ، الحاكم بأمر الله الذي تولى منصب الخلافة في القاهرة ، و في مصر من 996 م إلى 1021 ، والذي ظهرت الدعوة في عهد ولايته ، وافق على قيام الدعوة و ساعد نموها ، مشجعا و داعما و مؤيدا . ولقد سمح دعم الحاكم بامرالله العالي هذا و التأييد الخليفي للدعوة التوحيدية الجديدة بان تنمو فتتطور و تزدهر فتعم ، و تنتشر فتتوسع .... إلى آن "غاب " الحاكم الخليفة وتوارى لكي يمتحن دعاة المسلك في جدية إخلاصهم له ويتأكد من صدق المنتمين المنتسبين إلى المسلك الجديد في نبل نواياهم ، وإخلاصهم و ارتباطهم . ارتفع عنهم إلى السماء ، ليعود في يوم من الأيام القادمة ويأخذ بوضع سنن العدل و أسس القسط في الأرض المسكونة كلها، محاسبا كل بشري على ما اقترفت يداه وعقله ، قلبه ولسانه .

نشأت الدعوة الدرزية ، أذن، في القاهرة و مصر، أبان خلافة أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله، وهو السادس في سلسة الخلفاء الفاطميين الذين يقولون بانتسابهم إلى أهل البيت و آل محمد عبر فاطمة الزهراء بنت الرسول و الإمام علي أبن أبي طالب ، زوج الزهراء وابن عم النبي .
و ما لبثت الرسالة إلا أن ترعرعت وكثر عدد مؤيديها فبدأت تنتشر في الأمصار و الأقطار خارج مصر و حواليها ، حتى وصلت إلى لبنان فتمركزت بمرور القرون والأجيال والعصور في المناطق التالية :
1= وادي التيم ، في جنوب- شرق لبنان (قضائي راشيا وحاصبيا الحاليين).
2= أقضية الشوف و عاليه و بعبدا و المتن من محافظة جبل لبنان الحالية .
3= بيروت العاصمة و ضواحيها....
... إلى أن أصبحت(الدرزية) طائفة هامة كبيرة كان -
لها ولايزا يزال دورا هاما في مصائر الأشياء والأحداث

والشؤون العامة على ساحة لبنان خلال تاريخه الطويل
في عصوره الثلاث ، العهد الوسيط و العهد الحديث
والتاريخ المعاصر .

ثانيا- إيمان الدروز:

يعتبر الدروز أنفسهم ويقولون أنهم ليسوا سوى مذهب إسلامي نشأ في إطار الدين والإيمان القرآني - الرسو لي - المحمدي المتمثل بالقرآن و السنة النبوية . ويعرفون مذهبهم بقولهم أن إيمانهم هو مسلك عرفاني من تلك المسالك الروحية الكثيرة التي ظهرت ضمن إطاري العالم والدين الإسلامي.

ولقد كتب الدكتور سامي أبو شقرا عن ذلك، في كتابه " عقيدة الدروز" - منشورات مكتبة ناصيف - عماطور - عام 1987- يقول :

إن عقيدة التوحيد الدرزي كانت قبل أن يعرف الدروز بمئات الأجيال. إنها التوحيد السليم في تنزيه الإله الأحد وتوحيده و تجليه تأنيسا لخلقه . هذه العقيدة هي شعاع روحاني تألق منذ القدم وبطن حسب الحال. عايش كل الديانات وآزرها في رص دعائم التوحيد الداعية إلى الحق والخير. وكان له في كل ديانة ظاهرة أعوان أعلام قدموا التضحيات لنصرة حقيقة كل دين ، حتى جاء الإسلام فامتزج به ولم يضع فيه، وساند رجالاته سلما وحربا وعظم قرآنه و آمن به، شأن إيمانه بكل الديانات السماوية قبل أن تمسها أنامل :
1= التأويل و ما نتج عنه .
2= والتحريف و ما شابهه .
3= والبهرجة و مشتقاتها .
لقد تتالت التساؤلات حول الله المبدع والعقل والنفس وإبليس (الضد). وبما أن الكلمة الفصل لما يؤكده العلماء في هذا المضمار، دعما لاراء فقهاء الديانات ومذاهبها . وقد أثبتنا في هذا التوضيح أراء بعض الباحثين، تأكيدا على ما تتضمنه هذه، العقيدة، من أفكار تعود إلى ما بعد الطبيعة، وتأكيدا آخر على أن هذه العقيدة هي تيار روحاني قديم قدم الوعي الإنساني، وان فلسفته هي الوسطى بين التيارات المتنازعة .....
(مقدمة الكتاب المزكور أعلاه ، راجع الصفحتين 7 و 8 منها).
ثم يكتب في الصفحة 11 من ذات المقدمة ما يلي:
أن عقيدة الدروز، هي التيار الروحي الموغل في القدم، عايش متواضعا، كل المعتقدات الروحية في العالم شرقا و غربا، في الأزمنة الخالية كما سبق وكما سيتبين.
أما موجز مقدمات هذه العقيدة فهي :
أ= إيمان راسخ بالله واحد أحد، مبدع، منزه عن كل خلق وصفة وتحديد . تجلى وقت ومكان شاء، لتأكيد معرفته وتأنيس عارفيه وهداية معانديه.

ب = إيمان راسخ بقدم العالم والدعوات التوحيدية والتلحيدية.
ج = إمان راسخ بأن النفس البشرية لا تتجزأ ولا تتعدد، وهي جوهرية خالدة لها مقاضاتها على الأرض، واستحالة بقائها ومضة بغير جسدها، منذ تكامل الخلق (البشري و الارضي و الكوني و الوجودي).
د = إمان راسخ بتقمص متواصل للنفس، من بشر إلى بشر وبالجنس نفسه، مراعاة لصحة المقاضاة.

... ويعود الدكتور سامي أبو شقرا، فيكتب في الصفحة 23 من كتابه " عقيدة الدروز"، وتحت العنوان التالي :

توضيح النشيد الأول: موجزه :

قبل أن تكون مخلوقات كان الوجود خاليا من كل مادة على الأرض والسماء ولم يكن موجودا غير الله الأحد. وبأمره وارادته وجدت الأشياء كلها. لكن أول مبدعات الله كان (العقل) في الزمان المعنوي أول من عرف الله ووحده وأطاعه واستمد من جلاله القدرة على الخلق وتوجيه الدعاة وتسييرهم لمعرفة التوحيد. من نور العقل انبعث الضد (ابليس) أبو الشرور والمفاسد، فعصى إرادة الله. ثم ابدع الله اعوانا للعقل هم الحدود الاربعة وأبدع للضد ندا. فالصدق شيمة العقل

وجماعته ، والكذب طبع الضد وأخيه. وانتشر الفريقان في الوجود بعد انبعاث العالم المادي ، كل يدعو حسب طبعه المغروس في نفسه أما للخير أو للشر . و نفوس البشر تخلد بالتقمص وتحمل طبائعها حتى الحساب الأخير ، وللتربية تأثير فاعل أحيانا في كل النفوس و إلى مدى معين .

توضيح النشيد الثاني : مجزه :

أولى تجليات الله كانت منذ آلاف السنين ، وتجليه ليؤنس البشر الموحد ويزيده هداية وطاعة لعمل الخير والصدق والإنسانية الراقية . والعقل الذي ابدعه قبل كل شيء وكل اليه خلق الكائنات ومقاضاتهم . فكمل الوجود بناسه وحيوانه وجماده وفضائه وبحاره . وتميزت النفوس ، مختارة إحدى الطريقتين : الصدق والاستقامة أو الكذب والمفاسد . وذلك بواسطة أولئك الدعاة ، عمت الدعوة كل العالم ولا إجبار في الدين ليصح الحساب ، وتنال كل نفس نتيجة أعمالها في كل دور .

وبعد ذلك، كتب يقول في موضوع التجليات الإلهية ، في الصفحة 52 من الكتاب عينه :

توضيح النشيد الثالث : موجزه :

بعد الاف الأعوام تجلى سبحانه باسم (البار) والعقل كان شطنيل الحكيم في الهند ، بشر بالتوحيد فازدهر وشمل خلقا كثيرا ، وعمت السعادة كل الموحدين . وكان نقيضا له : ابن ترماح الداعي إلى الشرور والنهب و الزنا. وكل فريق يدعو ملحا إلى مذهبه و طبعه . والضد له قدرة فائقة ودهاء لخداع الناس وسوقهم في قافلته . ودام ويدوم تصارع الخير و الشر . أما ديانة التوحيد فتحتفظ بنزهتها و صدقها و طعتها و توضعها ، و بعكسها ديانة التلحيد المشركة الشريرة .

أما فيما يعود إلى النشيد الرابع من الكتاب المذكور فيقول :

توضيح النشيد الرابع : موجزه :

بعد احتجاب شطنيل الحكيم وغيبة البار (الله) تضعضع الموحدون وانكمشوا في الزوايا أزرياء ، وطغى المفسدون وتجبروا وساد الشرك والحرام بعد ذلك العهد المشرق بالخير والأنس والرضا . أما (نوح) فان الطوفان الذي حدث ليس طوف المياه بل هم دعاة الخير الذين طوفوا في الأرض داعين للصلاح والإصلاح . والعلم الحديث أثبت بطلان هذا الطوفان . وحاشا الله أن يعاقب البريء و المذنب معا . انه عادل ولكل امرئ جزاؤه حسب ما جنت يده .

وفي توضيح النشيد الخامس :

تأكيد على سلامة عقيدة التوحيد فقد أثبت التاريخ أن القائد العظيم (راما) جاء المشرق من أوروبا مع قوافل رافقته . وتعاليم هذا القائد تشير إلى أنه من أهل الصلاح ولعله صاحب منزلة رفيعة . نزل الهند الغربية وبشر بالتوحيد وزبدته . كما فعل في بلاد فارس المدعو (أيما) وكلاهما مع (كرشنا) نادوا بمبادئ الصدق و الحق و التقمص وخلود الروح . ولهم كلهم ملاحم شعرية رائعة فخامة وتوحيدا صادقا . ولا عجب فالتوحيد عم الدنيا .

أما في توضيحه للنشيد السادس : فلقد كتب حول موضوع الشعب العبراني، وهو الشعب الذي منه سيأتي الخلاص على يد المسيح يسوع عيسى ابن مريم، سلامه علينا، فيقول :

العبرانيون قدموا برا من العراق وعبروا نهر الأردن ونزلوا فلسطين. نفوسهم الشرسة أقضت مضاجع جيرانهم الكنعانيين المسالمين . أخيرا رحلوا إلى مصر، حاملين شراستهم ولؤمهم ودسائسهم . أكثر أسباطهم (فروعهم) تعصبا ومكرا : الصهانية.

من سفالتهم (أي الصهاينة) انهم سمموا مياه الشرب في مصر وزادوا فسادا فطردوا منها. تاهوا في الصحراء أربعين سنة. والموحدون في مصر كان مثالهم الأعلى هرمس وزير الفرعون. وكانت مدينة هليوبوليس (عين شمس) اليوم، والمسلة إمام هياكلها تشير إلى التوحيد. والنبي صالح فقد في الصحراء ، ناقته وكان موحدا.

ثم يأتي إلى توضيح النشيد السابع : وهو حول قدامى المصريين ومصر الفرعونية، التي يعتبرها قلعة من قلاع العرفان الروحاني :

كانت مصر قديما سيدة العالم في العلم الروحي والفن. وأكد المؤرخون المعاصرون أن الفرعون الأول - من أربعة آلاف سنة قبل الميلاد- المسمى (أتون) هو أول من دعا إلى التوحيد ، وأقواله ومآثره تؤيد ذلك. كان حامل لواء المعارضة للفرعون (آمون) وكان الفرعون أمنحوتب (أخنوخ) ، وفي التوحيد النفس، ينشر بذور التوحيد في تلك الربوع وذلك قبل مجيء موسى وقبل شعيب (الأمام العظيم) . وعاد الشاعر هنا فتحدث عن موسى وعن التلمود وعن كل ما اقترف شعبه من إجرام. حيث كان فجر الحق ملتحفا بالضباب....

إلى أن يصل في توضيحه للنشيد الثامن ، إلى اليونان القديمة ، وفيتاغورس ... الخ .....

كانت اليونان قديما محجة رجال الفلسفة والعلم والفن ، وأشهر نوابغهم : (ديونيس واروفوس وفيثاغور وأفلاطون و.....) كلهم يشدهم إلى التوحيد طبعهم الأصيل وما تركوا من آثار خالدة تؤيد رأينا بهم ورأي أقطاب المعرفة المعاصرين . أما القائد (الاسكندر) فقد توسع في مديحه الأديب (طه حسين) وذكر الكثير من فضائله واعتبره مصلحا رائعا لا فاتحا سفاحا كما يظنه كثيرون . وفي توضيح أعلام اليونان يظهر صدق إيمانهم وحقيقة معتقدهم الروحي.

توضيح النشيد التاسع ، وموجزه يدور حول روحانية الشرق الأقصى :

وفي عودتنا إلى الشرق يطل علينا بروحانيته وصفائه (كنفوشيوس وبوذا ولاوتسي) ولكل منهم مذهبه الذي يدنو حينا ويتراجع قليلا عن مسلك التوحيد الدرزي. أما أقوال المؤرخين فيهم فكلها تدعو إلى تصديق رسائلهم لأنها في قمة الإنسانية والصلاح وينقصها، أو لعل فات المؤرخين توضيحها، التصريح بتوحيد الله.
ولا غرابة في انتشار التوحيد هنالك ، لأن البلاد كانت مسرحا لدعوة شطنيل الحكيم ثم توثقت عرى التوحيد بالأمير (سومر راجبال) في العصر المتقدم .
وكل الأعلام المذكورين يحملون بوارق التوحيد إلى حد بعيد. آن عدم الجزم بذلك يعود إلى نقص في أبحاس المؤرخين التي لم تتوصل إلى جلاء غوامض الموضوع .
وبعد هؤلاء انبثق من بيت لحم نور السيد المسيح (العقل الكلي) وحواريوه الأربعة الأطهار ، فوطدوا دعائم التوحيد ونشروه قبل أن تلعب به أيدي الغلو والاجتهاد والزخارف لمجاراة عصرهم ، في عرف معتنقي هذه الديانة الظاهرة.

إلى أن يصل المؤلف إلى عصر ظهور الإسلام وانطلاق الدعوة المحمدية في مكة المكرمة من قلب شبه جزيرة العرب :

توضيح النشيد العاشر = الدعوة الإسلامية : موجزه :
- -
.... أخيرا .... ظهر في مكة النبي محمد فبشر بالتوحيد وأنزل عليه القرآن ، و كان حوله جماعة أطهار : سلمان الفارسي و رفاقه ، فأسهمو في نشر التوحيد و لم يغالوا في تفسير الكتاب ، ولا اعتبروا الها أحدا الا الله. لكنهم قد رفعوا عن جماعتهم التكاليف من صلاة وصيام وحج وزكاة معتبرين صدق اللسان والجوارح وعمق الإيمان والتوكل والرضى والتسليم هي مهتداه . وقد نبذوا عبادة الجاهلية وأيدوا الرسول بكل ما يحمل من خواطر خير ورضى وتواضع سائرين في ركبه الظافر إلى نهاية مطافه.
وخاصم (أبو ذر) ثالث حدود الصدق ، الخليفة (عثمان بن عفان) لطمع هذا الاخير في الاستفراد بمال الأمة الاسلامية الجديدة.
أما الحدان الاخران : عمار ابن ياسر وابن مضعون فقد أديا رسالتهما التوحيدية على أكمل ما يوجبه التوحيد والإخلاص للإسلام، مهد الدعوة الهادية المتواضعة.

و لقد رافق التوحيد دين الإسلام وما يزال ، لانه من صميمه و للانه امن بكتابه : القرآن المجيد .

توضيح النشيد الحادي عشر = ويدور حول الدعوة الفاطمية ، وتجلي الخليفة الفاطمي السادس : أمير المؤمنين الحاكم بامر الله : موجزه :

بعد زهاء أربع ماية سنة من ظهور الإسلام ، أطل من القاهرة بمصر، عهد جديد حيث تجلى بالحاكم (الخليفة الفاطمي) وجه الله الاحد.
.... ومد الحاكم (حمزة بن علي) بقدراته فكانت الحكمة الشريفة وكانت الحدود الأربعة ، اخوته وأعوانه ، انتقلوا بالتقمص في كل الادوار ، وكلهم بشر مثلنا يقبل الخطأ لانه خال من ظلمة الضد .
و بعكس اخوته، فلقد مثل حمزة ابن علي ابن أحمد الزوزني الملقب باللباد دور الصحابي سلمان الفارسي . وحيكت حوله المؤامرات فاختفى (أي حمزة هذا) ثم ظهر واختفى أخيرا بمشيئة مبدعه ، الحاكم بأمر الله . وغاب الحاكم لعدم فهم الرعية جليل منجزاته ومبادئه لطغيان روح الشر. والصالحون مهما اشتدت المحن ، معتصمون بالرضا والصبر لا ينحرفون. وكل ما حيك وقيل حول عقيدة التوحيد يومذاك فزور وبطلان. والآثار شاهدة وليمرع المارقون الكاذبون أمثال : نشتكين وجماعته.

توضيح النشيد الثاني عشر = العصر الفاطمي : تابع ، موجزه :

في هذا النشيد يبرز حمزة بن علي (العقل الكلي) بكل ما لديه من طاقات لنشر التوحيد وتوزيع الدعاة وحماية حدود الدولة من البيزنطيين وعملائهم وعملاء فارس والبربر. أصاب انتصارات جمة وانتهى من رصف رسائل الحكمة بمساعدة بعض اخوته. وأصغرهم بهاء الدين الذي استمر بعد احتجاب حمزة مدة سبع عشرة سنة ، مثابرا على نصرة أهل الحق والصدق سيما في سوريا ولبنان. كان يبعث الرسائل في عقد القصب ويجامل أرباب السلطة ليصون أعوانه بعد النكبة التي أوقعها بهم (علي الظاهر) خلف (الحاكم) . وقد شملت المذابح بالموحدين شواطئ المتوسط من انطاكيا شمالا إلى عريش مصر، فدامت (22) يوما. لكن حكمة السيد بهاء الدين لأمت تلك الجراح. وقد راسل هذا الداعي أمير (ملتان) بالهند كما كتب يدعو أساقفة القسطنطينية باسم المسيح إلى اعتناق التوحيد. وكم رسائل بعث بها إلى الموحدين والموحدات في ربوع سوريا يهدي ويقوي العزائم ويوبخ الناكثين ويحث على الصبر ويبشر بالفرج حتى كان مغيبه عن ساحة الدعوة قفلا نهائيا لها حتى الحساب الأخير. فمن لم يستجب فبل لن يستجيب أبدا.

هكذا، تم لنا بفضل الدكتور سامي أبو شقرا وكتابه : عقيدة الدروز في عميق جذورها ومقوماتها وأعلامها - منشورات مكتبة ناصيف - عماطور - الشوف - صدر عام 1978 - تم لنا إن نستعرض و بشيىء من التصرف ، بشكل مبسط وجميل ، موجز وواضح ، تاريخ العقيدة الدرزية والإيمان التوحيدي.

لقد نشأ الإيمان الدرزي ، فنما وترعرع في جو وإطار تاريجي إسلامي . فهو كما قلنا سابقا ونكرر ، مذهب توحيدي ومسلك عرفاني نوراني. ولقد اعتمد هذا المذهب ، كل الاعتماد على الباطنية كوسيلة فهم وبحث و تأمل ، تحليل و تعبد وعبادة ، وعلى التقية كأسلوب احتراس ووقاية و حمية .
فالباطنية والتقية هما في أس قيام مسلك الموحدين - الدروز ، إذ لايمكن لأي باحث أو دارس ومهتم أن يفهم مبادئ الإيمان التوحيدي ونقاط العقيدة الموحدة دون القبول بهما والتعرف على ما يشكل دعائمهما وعناصر تركيبتيهما.
الباطنية و التقية هما سلاح عاقل متعقل لاستمرار و نمو مسلك التوحيد و جماعة الموحدين .

ثالثا - الباطنية في الإيمان التوحيدي : إيمان الدروز :

حول هذا الموضوع ، كتب السفير عبد الله النجار في كتابه : مذهب الدروز والتوحيد - منشورات - دار المعارف بمصر - عام 1965 - كتب حول رموز الباطنية ما يلي :

الباطنية مذهب خفي اتخذه أصحابه وقاء من نقمة الخائفين والغوغاء، وطووه على معان خصت بها فئة مختارة من العارفين. شرعه اليونان القدماء وحصروا أسراره بالمطلعين من النبهاء. فهو منسوب إلى أرسطو وأفلاطون وأتباع فيثاغورس.

من هذه المصادر الثلاثة انحدر المذهب إلى الدروز الذين يعتبرون هؤلاء الفلاسفة أسيادهم الروحيين. فطبقوه على التعاليم الإسلامية. ثم ا حاطوه بالحذر والكتمان حتى اليوم. كما أنه استهوى سواهم من الفرق الباطنية في الإسلام المنفتحة للتيارات الفلسفية .

انه في الأصل اجتهاد فلسفي لإدراك الحقيقة الإلهية ، وتجريد للروح من سطحية المعتقد الديني ، وشوق للدنو من معرفة الله ، استعمل في خلافة الحاكم بأمر الله ، وسيلة جانبية لتوسيع السلطة الفاطمية وتوطيد أركانها. ولكنه لم يملك من الطاقة الاجتماعية ما يضمن له الانتشار حين سلك إلى السياسة طريقا دينية. وان شب في النفوس حرارة وجدانية كتلك التي تبعثها النزعات الصوفية.

واستعمل أتباعه ألفاظا واصطلاحات خاصة لا يفهم مؤداها إلا المؤتمنون على الأسرار ، حفاظا على سلامتهم من أهل السنة (أي أهل السنة والجماعة من المسلمين) فيما يذهبون إليه. وتسهيلا لبثه دون استثارة من يخالفهم فيه. فقد اعتبروا بما آل إليه أمر المعتزلة ، حين خالطت السياسة العقيدة ، وتشابكت فروعهما. فكانت الحيطة أأمن لهم وأضمن لانتشاره. ولاسيما بعد تشتت دعاته ، واضطهاد الاتباع في الدولة الفاطمية التي نشأ المذهب في ظلها، ومنها امتد إلى سائر الأقطار، وأصبح الاتصال بين مركز الدعوة والأقاليم من أشق الأمور، حتى إن الرسائل التي كتبت بعد عهد الحاكم بأمر الله لم تستهل بذكره كما كانت تستهل الرسائل التي كتبت في عهده ، ولم يكن فيها ما يدل على المذهب ، بل كانت تبدو عادية ، مبالغة في التحفظ والاحتراس ، وإغراقا في الرموز والكنايات.

واني مقتبس من الرسالتين التين تحملان الرقمين (78 و 92) من رسائل الحكمة الدرزية * ما يبين كيفية استعمال اللغة الرمزية ، وطرافتها في التستر والحذر :

فان كنتم تعتقدون أن هذه الضيعة محبسة على الذي تقولون .... يأمر وينهى كما أوصاه مولاه ، وشرط عليه أن لا يحدث فيها حادث ، ولا يفرط في عمارتها ، ومتى استخدم فيها من يفرط فيها، عزله .... فيجب أن تعلموا أنه هو الذي ضمنها. والحصص ليست لمسعود ولا لغيره من الثلاثة الذين كتب عليهم الوثائق .... إن هذا الرجل قد أخلف الظن ، وأفسد الضياع ، ولم يعمرها ، وأباح أهلها من القبائح والمناكر ما لم يسمع عندنا .... كل هذا مستور عن صاحب الضيعة حتى آل أمرهم إلى الهلاك .... انه كان يفرض على الفلاحين أعمالا يؤدونها ويقول لهم أنا أحمله لصاحب الضيعة. لقد كذب ....

يا اخوة ! أن من يعتقد أن الله حق ، يتحقق أنه لا يستخلف على العلم إلا عادلا منصفا منزها عن الجور والظلم .... فأنصفوا نفوسكم بالتفكر بالحق ومعرفة أهله ... واغتنموا زمان الإمهال ، وتقربوا إلى الله بصالح الأعمال، قبل طي الصحائف وجفاف الأقلام ... فهذا الوقت الذي قيل فيه " يكون القابض على دينه كالقابض على الجمر" .....

" فارفعوا معنى هذا الكتاب للكل من ذكر أنه يطلب نجاة نفسه ، في ستر من الثقات ، لئلا يقوم عليكم من يرى أن له أمرا ونهيا ... وليس في الدين إكراه ولا إجبار .....

وأنا في يومي هذا راكب إلى إنطاكية (من معتكفه في الإسكندرية) ، هارب من سماع هذه الفضائح .....

ومن الرسالة ذات الرقم 92 :

.... انه خرج من عندنا بالبضاعة ، ونحن به واثقون وقد علم الشيخ أيده الله إن التجارة بمصر قد كسدت ... ولم يبق في كل بلدة غير السمة القديمة والذكر .....

ثم تنهى الرسالة بما يلي :

والحمد لله رب العلمين ، وسلامه على رسوله خاتم النبيين ، و آله الطاهرين ، وألائمة المرضيين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل. وقد أرخت الأسعار بالفسطاط بحمدالله ، والماء فمشرف على كل خير من الزيادة والبركة والأمن....

ويجعلون للآيات وللألفاظ معاني باطنية ليس من الفضول إيراد بعضها وتفاسيرها :

مثلا ، يفسرون "وسع كرسيه السماوات والأرض" من آية الكرسي (السورة 3 من القرآن الكريم - الآية ذات الرقم 255) بأن الآية هي "العقل" (الرسالتان رقم 8 و29) والكرسي أو العرش بأنه ، الوحي أو علم التوحيد المودع في العقل.

و كلمت كافور في الآية القرآنية : "أن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا" . (السورة ذات الرقم 76 - الآية 5) تعني بالكافور : النعمة والسعادة والرضى.

• أن الرسلتين المذكورتين هما رسلتين مأخوذتين من مجموع رسائل الحكمة البالغ عددها 114 رسالة وهي مرجع هام عند الموحدين .

هكذا يتناولون بالتفسير الآيات والأمثال مما لا مجال لسرده.....
اكتفي هنا بانتقاء بعض الألفاظ :
السماوات السبع هم الأممة السبع ، من الإمام السابع إسمعيل أبن جعفر الصادق إلى الإمام الاخير محمد المهدي ، الإمام المنتظر .
ملكوت السموات و تعني دين التوحيد.
"الصخرة" التي بني عليها البيت و تعني "العقل" الكلي ، أول الحدود .
"السيل" وهو محنة الدجال التي لا تقوى على الصخرة أي العقل الكلي .
"الاعتراف" وهو الندامة.
"القربان" و يعني العمل الصالح .
"جنة المأوى"= دعوة التوحيد.
"سدرة المنتهى"= الإمام.
"النوران" = العقل والنفس.
"الجديدان"= النهار أي العقل الكلي والليل أي الضد.
"الودائع"= الأعمال الصالحة .
العذاب والثواب = الشرك والتوحيد.
الثوب = الستر.
الحجاب = الناسوت.
الحنادس = الشرائع الباطلة.
الحجج = الحدود الأربعة أي النفس و الكلمة و الثابق و التالي .
الطيور الابابيل تلك التي يتكلم عنها القرآن في السورة الكريمة سورة الفيل ="عبيد مولانا الحاكم بأمر الله جلى زكره .
الصلاة = صلة القلوب بالتوحيد .....
تنطوي على مثل هذه الباطنية جميع المذاهب ، وان لم تبلغ هذه الدرجة من التورية. فان الآية القائلة :
"ما جئت لألقي سلاما على الأرض. ما جئت لألقى سلاما بل سيفا"
(الكتاب - العهد الجديد الانجيل بحسب القديس متى - الإصحاح العاشر- العدد34)
هذا النص لا يعني ظاهرا مفهوما.
ولا الآية : "أني جئت لأفرق الانسان ضد أبيه، والابنة ضد أمها" .
(العدد 35 من الإصحاح نفسه) .
ولا العدد 26- الإصحاح الرابع عشر من الانجيل بحسب القديس لوقا:
" إن كان أحد يأتي إلي ولا يبغض أباه وأمه وامرأته وأولاده واخونه وأخواته. حتى نفسه أيضا، فلا يقدر أن يكون تلميذا لي".
ولا قوله : "أما أعدائي ، أولئك الذين لم يريدوا أن أملك عليهم ، فأتوا بهم إلى هنا واذبحوهم قدامي".
(الانجيل بحسب القديس لوقا - الاصحاح العاشر - العدد 21) ......
هذه الأقوال تفسرها "الحكمة" * تفسيرا باطنيا يختلف عن مؤداها اللفظي ، إذ لا تصح نسبة معناها الظاهر إلى ملك السلام والمحبة القائل : "أحبوا أعداءكم ...".
كما تفسر قول القرآن (الآية 89 السورة 4:سورة النساء):
" فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم".
عن المرتدين تفسيرا يختلف عن ظاهر اللفظ.

---

* الحكمة ، وتعني تهنا " رسائل الحكمة الشريفة " أو " المعلوم الشريف " التي هي مستند رئيس و مرجع أساس في تعليم الموحدين .

وقد وجه نقد يتهم الدروز بظاهر أقوال مماثلة. أكبر برهان على نفيه ما يتحلون به من سماحة في الأخلاق ، ورعي للذمم ، وصيانة وتعفف. وتكريم لشعائر سواهم. وكم وهبوا رهبان النصارى من أديار وأطيان ، حين كانت لهم اليد العليا في لبنان ، إن لم نقل حين كانوا الأسياد فيه حتى انه سمي باسمهم ، وهم أول من شيد كيانه السياسي في التاريخ . لا يجحد ذلك إلا الكافرون بالنعمة الكيانية التي يرتعون في بحبوحة امتدادها اليوم آمينين.
فإننا نسمع من ينسب إليهم أمورا عنها مترفعون ، ولها منكرون. ومن أسخف ما نمي إليا أن حاكم "جبل الدروز" ، الفرنسي في زمن الانتداب ، كان يعتقل من يتنحنح ، مدعيا أن الدرزي يقصد بها اللعنة ، وكررت هذا الادعاء في منزلي أديبة لبنانية كبيرة نشأت بين الدروز . وهي تعلم أنهم لا يتسترون في عدائهم ولا يجبنون. والتاريخ يشهد لهم بأنبل ضروب الفروسية والشهامة والبطولة ، وخوض غمار الثورات ، حتى في سبيل سواهم.
وأقرب مثل لنا على ذلك ثورة سلطان الأطرش من أجل لاجيء اسمه أدهم خنجر اللبناني ، غير الدرزي ، والثورة الكبرى ضد الانتداب الفرنسي في سوريا ، والدروز فيها قلة حملت أعباء الكثرة بطولتهم ، وجاوزت نسبة تضحياتهم للقضية العامة ، كل حد....

يتابع السفير عبد الله نجار بحثه في كتابه المشار اليه أعلاه..... إلى أن يصل إلى : "مراتب الباطنية".
فيكتب قائلا :
"التوحيد" غير "الباطنية" وان هو انبثق منها ، أو انشق عنها، واشترك في كثير من مراتبها ومناسكها وتعابيرها ، حتى ليتبادر إلى الذهن أنهما عقيدة واحدة. وسنعرض أوجه الشبه والافتراق فيما يلي من هذه المراتب الروحية بمنتهى الإيجاز والجهد في الإيضاح.
الباطنية تعتبر "العقل" (أول الحدود الخمسة) و"النفس" (ثاني الحدود الخمسة) بمثابة الأب و الام للوجود الإنساني.
منهما يستمد سائر "الحدود" وجودهم ، وهم "الكلمة" (الحد الثالث) المنبثقة من "النفس"(الحد الثاني) بواسطة العقل.
و"السابق" (الحد الرابع) المنبثق من "الكلمة" (الحد الثالث) بواسطة النفس (الحد الثاني) .
و"التالي" (الحد الخامس) الذي يستمد سلطته وقدرته من السابق (الحد الارابع) . هؤلاء هم الحدود الخمسة.
ولكن في التقسيم الباطني يطلق نعت "السابق" و"التالي" على الأول والثاني من الحدود ، أي على العقل والنفس. فالعقل أصل الوجود. باتحاده بالنفس يتكون منطق الحياة. أي الكلمة ، أو المعرفة التي تنقسم إلى ما سبق منها وما يليه على توالي الأجيال. بهذه المعرفة يرتفع الانسان نحو العقل الكلي ، في طريق الكمال ، إلى نهاية الدهور".
وتنال المعرفة بواسطة "الجد" في طلب العلم ، و"الفتح" في ميادينه الواسعة ، و"الخيال" فيما يمكن تصوره. وهي ترمز إلى متممات الوجود في مراحل تلك الطريق.
في شرح هذه العناصر ، وهي خمسة في الباطنية وثمانية في التوحيد ، ورد: أن جوهر"النفس الكلية". أي الفعل والصورة، جاء من "العقل الكلي". أي من العلم والقوة. ومن جوهر النفس برز جوهر "الكلمة" الذي منه جوهر "السابق" فبرزت الهيولى ، والهيولى جوهر بسيط قابل للصور . وهو مادة الوجود.

وورد في شرح السابق والتلي الاخرين : إن السابق وصف بالبرودة " لاجل سكن العلم و استقراره ببرودة الحلم و هدؤ الوضع و وصف التالى بالحرارة ، لما فيه من اليقظة، والحركة ، والشوق . أخذ العلم عن السابق ، ولحاجته لاظهار الفوائد لمن دونه أو بعده.
إن المراتب الخمس روحانية وجسمانية، لا يدرك ترتيبها إلا الراسخون في علم الباطن .
فالرسالة رقم "17" تقول:
" لكل حد في العلو روحاني ، حد في السفل ، جسماني ، يقوم مقامه." فالناطق" يقوم مقام السابق و"الأساس" يقوم مقام التالي. والإمام يقوم مقام "الجد" ، و"الحجة" مقام "الفتح" و"الداعي" مقام "الخيال".

فيكون ترتيبهم كما يلي :

5 سماويون	بازائهم	5- أرضيون
1 - السابق	يقابله	1- الناطق
2 - التالى	"	2 - الاساس
3- الجد	"	3 - الامام
4 - الفتح	"	4 - الحجة
5 - الخيال	"	5 - الداعي

تقول عنهم الرسالة ذات الرقم 15 :
" السابق والتالي والجد والفتح والخيال ، والناطق والاساس والامام والحجة والداعي ، كلهم عبيد لمولانا جل ذكره (أي مولانا الحاكم بأمر الله) ، موجودون في عصرنا هذا. مشخصون ..... " .
وفي محاولة التقريب بين الباطنية وفرعها التوحيدي ، يصنف الداعي والمأذون والمكاسر ، في مكان آخر ، بأنهم الجد والفتح والخيال (الرسالة رقم 38 من رسائل الحكمة التوحدية) .
هؤلاء الثلاثة مع الخمسة العلويين هم المقصودون بقول حمزة (الرسالة 13) انهم "حملة العرش الثمانية " المذكورون في القرآن (السورة 69- سورة الآية 17) بقوله تعالى :
"ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية".

أما بهاء الدين (الرسالة 57) فانه يصنفهم كما يلي :
1- علة الإبداع = العقل .
2- المشيئة = النفس. وهو أول الحدود الأربعة الذين يلونه ، باعتبار أن العقل فوقهم جميعا .
3 - المثنى = الكلمة .
4- الثلاث = السابق .
5 - الرباع = التالي .
ويلي هؤلاء :
1- الدعاة .
2- المأذونون .
3- النقباء أو المكاسرون.
ثم يأتي بعدهم المستجيبون - الموحدون ، على هذا الترتيب .
وان كانت الرسالة (20) تميز بين النقباء والمكاسرين حيث يجعل "المجتبى" أي النفس خليفة العقل "على سائر الدعاة ، والمأذونين ، والنقباء والمكاسرين".
ولعل ذلك التفريق تنظيم جديد أحدث فيما بعد في جهاز الدعوة. مما سنأتي على ذكره بالتفصيل.
تصف الرسائل الحدود السماويين ، الخمسة المذكورين آنفا ، بأنهم "خمسة روحانية". ولهم في مواضع كثيرة أسماء وألقاب مختلفة لا مجال لسردها جميعا. فان العقل مثلا يسمى " ذا معة " ، والنفس "ذا مصة". والكلمة "الجناح". عندما لا يقصد بأنه أحد الجناحين : الأيمن والأيسر . فالجناح الأيمن ، عند التخصيص ، هو "السابق". والجناح الأيسر هو " التالي " ولذلك ، من باب التمييز ، يطلق أحيانا على "الكلمة" أي ثالث الحدود لقب "الجناح الرباني".
وكم يقع القارئ ، غير الملم بالبواطن ، في حيرة من جراء نعوت ومتواردات ومترادفات وكنايات لا يعرف دقة مدلولها آلا الشيوخ " المتقدمون" ، كالقدرة ، والمشية ، والكلمة ، والعزة ، والإرادة. وقولهم أن السابق هو الكلمة ، مثلا "هي هو وهو هي" .... الخ ....
كما جاء في الرسالة رقم "13": "وبعضهم قالوا بأن الكلمة فوق السابق. لكنها هي هو وهو هي. لا فرق بينهما...."
آلى هذا أشار المقريزي في كتابه " الخطط " بقوله :
إن هذا الغموض في الملابسات يوضح للمستجيب عند بلوغه الدرجات العليا في علم الدين. إذ يوضح له في الدرجة الثامنة (كذا) أن السابق سيد الوجود ، والتالي منبثق منه. وهما متلازمان كالعلة والمعلول ، أو السبب والنتيجة. وأن التالي قد يصل في تكامله إلى درجة السابق ، كما يستطيع "الأساس" أن يبلغ مرتبة "الناطق" ، و"الداعي" مرتبة "الأساس" . ولعل هذا التداخل يقرب إلى الأذهان أمثال نظرية الثالوث وما شابهها. فلننظر في

شأن الدعاة ، والمأذونين ، والمكاسرين ، قبل الأقدام على شرح الفوارق في المراتب بين الباطنية والتوحيد ، أو الإشارة إلى تداخلها مما يستلزم التوضيح جهد الاستطاعة ، ما دمنا في مجال التحقيق.
(انتهى بحث السفير عبد الله النجار .... أستعنا به بشيىء من التصرف ....) .

رابعا - التقية في مذهب التوحيد :

التقية هي جامع مشترك بين كثير من العقائد والفرق ، المذاهب والمسالك ، الملل والنحل ، خاصة تلك التي لا تشكل سوى أقليات عددية في عالم ومحيط أكثريته على دين أو مذهب أو طائفة معينة واحدة ، ذات إ يمان معلن ومباشر.
أما فيما يتعلق - بالموحدين - الدروز ، فلقد كتب السفير النجار فصلا خاصا بالتقية نورده ههنا نظرا لأهمية ودوره في فهم الموضوع :
كان الموحدون - الدروز منذ نشأة مذهبهم ، في مطلع القرن الخامس للهجرة ، ألحادي عشر للميلاد محترسين في كتمانه ، مشيحين عن إعلانه ، صيانة لأنفسهم من الاضطهاد ، ووقاية لها من العدوان ، في ذلك الزمان .
هذه الفرقة المتفرعة من الشيعة ، كانت عرضة لنقمة الشيعة و السنة على السواء . كما كانت الشيعة نفسها ، قبل قيام أمرها ، واشتداد أزرها ، هدفا لمجاهدة السنة لها ، وعدوانها عليها .
فمما يروى ، أن معاوية بن أبي سفيان أباح التنكيل بالذين كانوا يدينون بالولاء لعلي وأهل بيته . وحذا حذوه في اضطهاد الشيعة بعض عمال الأمويين ، لاسيما في ولاية عبيد بن زياد ، وفي ولاية الحجاج ابن يوسف . فكان التزام التقية أوجب وجوه الحذر ، والحيطة من التقتيل والتشرد .
في هذه التقية يتذرع المتقون بالآية القائلة : "... إلا من أكره وقلبه مطمئن بالأيمان (سورة النحل : الآية 106) .
قيل إنها أنزلت بعد العذاب الذي وقع على عمار بن ياسر و إكراه المشركين له على قول السوء بحق الرسول ، وإن الرسول قال له ، حين جاء مستغفرا :
" لا تبك ، إن عادوا لك فعد لهم بما قلت " .
فكأنه بذلك يزيد لمن قيل لهم " ... واحفظوني في قلوبكم ... " ..
جاء هذا المكان بعد إغلاق باب الدعوة سنة 434 هجرية ، مما سنفصله فيما بعد . فكان الدعاة يوصون أتباعهم بالحذر والكتمان ، حفظا لسلامتهم من الاضطهاد الذي نزل بهم سنين متواصلة ، بعد غيبة الحاكم ووزيره حمزة .
حتى قضي على المذهب في مصر ، موطن ظهور الأول ....
حفلت الرسائل بتحذير المستجيبين منها (أي كشف المذهب) .
نرد على سبيل المثال ، المنشور الذي أرسل إلى آل عبد الله - آل سلمان سنة 431 هجرية . فقد جاء فيه : " واستديموا بالستر لما أوغرناه إليكم ... وليتدبر بالستر لإثبات أسماء المعاملين ...
و كانوا ينصحون بالارتحال إلى حيث يكون اهم ولي يلطف بهم و ينصفهم ولا يحيف عليهم .
" فأن كان الموضع الذي أنت فيه يصلح للسترة فالمقام . و إن اردة الافساح و راحة القلب فعليك ببلاد الشام " ... ".. (الرسالة 89) .... حيث اعتصمت عشائرهم في صياصي جبالها ، بعد أفول نجم الأمويين و العباسيين .
وتراخى حكم الفاطميين الذين أمعنوا في مطاردة " الموحدين " بعد اختفاء الحاكم بأمر الله الفاطمي الذي رعى مذهبهم .
وسمح لهم ، بالحيطة والإنكار ، " عند الإضرار . والله العالم بما تظهرون وما تكتمون " .
كما سمح الرسول لعمار ، وفقا للآية الكريمة : " من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره ... " أى أن المكره معذور لسانه ما دام قلبه مؤمنا . فقد تستطيع إكراه امرىء على قول ، ولكنك لاتستطيع إكراهه على فكر ، أو إيمان ، أو عقيدة في القلب .
ولكنهم من فرط ما قاسوا من ألوان الاضطهاد والتعذيب و التقيل والتنكيل ، رحل أكثرهم عن مصر إلى ديار الشام . وأفضى الخوف بكثيرين إلى الإنكار والتظاهر بالجحود . بما يشبه إنكار بطرس الرسول للمسيح . وانحاز بعضهم إلى صفوف أعدائهم... .
في ذلك تقول الرسالة (74) : " فأين تسميتهم لأنفسهم بالموحدين المهاجرين ؟ ! وأين قولهم إنهم أخرجوا من ديارهم بعد القتل والزعج هاربين ؟! . حتى إن بهاء الدين ، كبير دعاتهم بعد الغيبة ، يقول : " وأنا متغرب ، بعد الهجرة ، بالاضطرار ... عجل الله جزاء أهل الردة ... ولا تاب على الذين أحوجونا إلى التغرب ... ".
وتصف الرسالة المذكورة أعلاه المؤرخة في 430 هجرية ، ذلك الاضطهاد بهذه العبارات :

" آل السفه الذين رفعوا رؤوس الشهداء على رؤوس الرماح ، وسقوهم كأس الذباح ، مع من أغرقوا في البحار ، وأحرقوا بلهيب النار ، وقتلوا الجم الغفير ، بعد سبي النساء والاولاد ، وقطع قلوبهم والاكباد ، وتعليق رؤوس الرجال الموحدين في أعناق أخواتهم و بناتهم ، وذبح الأطفال الرضع في حجور أمهاتهم ، فلم يرعوا لأحد في الله ولا ذمة ... بل أجروهم على حد السيوف قتلا وصلبا ، وفي الشوارع شقا لبطونهم ، وجرا بأرجلهم وسحبا ، ولأموالهم وذراريهم سبيا ونهبا ، ولم يجروهم بأخذ الجزية منهم مجرى النصارى و اليهود ، بل ذبحوهم كما تذبح الجزر عداوة لله ... فإلى الباري تعالى وإلى وليه المستغاث و المشتكى ، وإلى رحمته المفزع والملجأ ... بهذا نطقت صحف الحكمة والأسفار عن اجتماع فرق الشك على قتل الفرقة الواحدة الناجية "......

تشير بذلك إلى الرسالة (78) القائلة :

" في ذلك اليوم يصبح الموحدون هدفا للاضطهاد ، ويكون القابض على دينه كالقابض على الجمر ، ويفر المؤمن بدينه من شاهق إلى شاهق ".

إن التاريخ حافل بأنباء الاضطهاد الديني ، لم ينج منه أتباع أي دين من الأديان . على أنه لايصح أن نلقي التبعة في ذلك على الأديان التي يرتكب تابعوها ، في جهلهم ، ما تنهى عنه ، ولا سيما الدين الإسلامي القائل :

" لا إكراه في الدين ". و " قل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر "، و " ولو شاء الله ما أشركوا ، وما جعلناك عليهم حفيظا ، وما أنت عليهم بوكيل " .

(سورة الأنعام - الآية 107 من القرآن الكريم) .

ولكن للحماسة العقائدية فورات تخرج متعصبة الأقوام من حدود الوصايا الدينية . ومع ذلك ، إذا استثنينا مكافحة الدعوة " التوحدية " في إبانها بالشدة التي ذكرنا ، فإننا نجد أن الدروز وسائر الملل الصغيرة المنتسبة إلى الإسلام ، المخالفة لبعض أصوله وفرائضه ، اجتهادا و تأويلا ، كفرها بسببهما فقهاء السنة ، ما برحت منذ ألف سنة تحت سلطان المسلمين آمنة مطمئنة .

لقد ظلت موفورة الكرامة ، على قلة عددها ، مما يدل على سماح الاسلام حتى في أوج سطوته وأيده ، حيث كان باستطاعته اذابتهم واستيعابهم ، كما محت النصرانية الاسلام في اسبانيا ، أو كما ذبح كاثوليك فرنسا في عيد القديس برتلماوس خمسين ألف مواطن بروتستاني ، ونالوا تهاني جميع الدول الكاثوليكية ، حتى آن البابا غريغوري الثالث عشر أمر باشعال الزينات واعداد الاوسمة لهذه المناسبة .

لقد مضى ذلك الزمن وانقضى ، وأصبح شعار الانسان الحاضر : " لكم دينكم ولي دين" ، وصار واقع الناس :" انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون".....

.... وبقيت التقية ، اصطلاحا ، لا استحياء ، وخفرا ، ولا وقاء ....

و قد أن لها أن تشرع باب خدرها للنور ، وأن تستبدل بالنقاب السفور.

خامسا - مسلك التوحيد والاسلام :

أيضا وأيضا ، سنستعين ههنا ، ولايضاح هذا الموضوع ، حسب ما يعتقد ويقول الموحدون - الدروز ، بكتاب السفير عبد الله النجار : مذهب الدروز والتوحيد .

الذي أفرد فصلا خاصا، موجزا وواضحا ، لشرح ماهية العلاقة بين دين الاسلام من جهة ومذهب التوحيد الدرزي من جهة أخرى.

يقول السفير النجار في الصفحة 15 من كتابه الذي زكرنا أعلاه ما يلي :

طلع القرن الرابع للهجرة (العاشر الميلادي) على الدولة العباسية ، فإذا هي في دور احتضار طويل. سنبين فيما بعد ، ما أسفر عنه من تعدد الفرق والدول. واشتداد المنافسة بينها ، حتى طمع فيها الروم ، وكادوا أن يستولوا عليها ، لولا أن وقف في وجههم الحمدانيون مثلما وقف الايوبيون في القرن السادس للهجرة في وجه الصليبيين. وفيه عز جانب الفاطميين ، واتسعت رقعة حكمهم ، حتى شملت الشام والجزيرة ، وخطب لهم على المنابر ، وبلغ العلم ذروته . و بالرغم من إنشغال الدول العربية وتنابذها وانقسام الأمة إلى شيع ومذاهب، فقد كان ذلك العصر عصر العلم والفلسفة.

ترافق النهضة العلمية نهوض الدولة، ولكنها لا تضمحل باضمحلالها بل تستمر بعدها إلى أن يصل إليها تأثير انقطاع أسبابها. هكذا كان شأن العلم في ذلك العصر . فكما أنه لم يزدهر في عهد أبي جعفر المنصور أو المهدي ، أو الهادي ، بل في عهد الرشيد والمأمون ، كذلك لم تذو أزهاره وتخب أنواره، في عهد الانقسام على أثر تقهقر الدولة العباسية ، بل بعد الانقسام بزمن طويل . فقد أثبت التاريخ أن العلم لم يكن أقل شأنا في عهد الانقسام منه في عز العباسيين. ونظرة إلى من التف حول ملوك ذلك العهد من العلماء وما كانوا يتمتعون به من

إجلال وحماية وتقريب وعلو كلمة ومنح و صلات ، على رغم التأخر الاقتصادي ، نظرة إلى كل ذلك تكفي ، للدلالة على علو كعب العلم وعزة جانبه.
إذن فالعصر الذي نحن بصدده كان عصر العلم والفلسفة. وقد بلغا أوجهما في ظل الفاطميين . ولما كان لا بد للدين من أن تصل إليه يد العلم لاتصاله بالفلسفة ، كان السبب في تعدد الفرق الدينية تقدم العلوم. لا سيما علم الكلام الاسلامي . أضف إلى ذلك و إليهما ، عامل السياسة . فمن الثابت أن السياسة وراء كل انقسام ديني. وقد هيأت الناس لهذا الانقسام حياتهم الاجتماعية ، وما وصلوا إليه من بذخ وترف واختلاط بالأمم الغريبة.

لا يسعنا تعداد تلك الفرق التي حفل بها ذلك العصر. تكفي الإشارة إلى أسواق المناظرة والجدل، وما أثير فيها من نظريات وأراء، وما تفاقم حولها من قتال وعداء . كما فعل القرامطة والإسماعيلية والخوارج الأباضية . وكانت جميع الفرق تعود في مناظراتها الفقهية والفلسفية إلى كتابها الكريم : القرآن.
ومن هذه الفرق الموحدون أو الدروز.
في غمرة ذلك العصر ، شبت في مصر تلك الفئة من الحكماء، متأثرة بروحه الفلسفية، متمتعة بحماية الخليفة في انشقاقها من الشيع الباطنية. وقد كان الخلفاء يستعينون بالمذاهب وأصحابها لبسط سلطانهم على الأقطار، وتوسيع رقعة حكمهم في الأمصار.
ولكن يخطئ من يعزو إلى الخليفة الفاطمي ابتداع هذا المذهب وإن هو استفاد من استخدامه. فإنه امتداد لموجة ذلك القرن الفكرية، ووليد الفلسفة التي بلغت النضوج عند العرب. إنه نتيجة لا بدعة. من يدرسه على حدى يقع في بحران فكري، كيف لا وهو وليد الباطنية. والباطنية وليدة الصوفية الشيعية، والشيعية وليدة الاسلام. وكانت المذاهب تبني على القرآن مناظراتها ومجادلاتها المستمدة من الفلسفة ، المرتكزة على علم الكلام .
حسبنا الإشارة ههنا إلى الرسائل المتبادلة بين أبي العلاء المعري وداعي الدعاة في مسلك التوحيد.

من الثابت إذن أن هذا المذهب متفرع من الإسلام ، والإسلام من حيث انحصاره في القرآن وعدم خروجه عنه، هو مدار هذا المذهب الذي يفسر آياته على طريقته الخاصة. فهو ليس ديانة، وكتبه تسمى " الحكمة " مما يدل على مصدرها الفلسفي ، الحافل بالنقد والتفكير والتحليل والدحض والإثبات والتأويل.
إننا إذا سمينا دينا كل شكل من أشكال العبادة و كل نوع من أنواع فهمها وتفسيرها ، وكل لون من ألوان ممارستها، كانت الأديان من الكثرة بحيث يصعب إحصائها، بل بحيث تولد مع كل حي وتموت معه. ثم ماذا يكون الإسلام وما هو عندئذ غير السنة؟ وماذا تكون النصرانية و ما هي غير الكثلكة؟
إن " التوحيد " صلب الإسلام وهو أيضا صلب جميع فرقه ولا سيما الدروز الذين يسمون أنفسهم " الموحدين" أما الانتقال من دين إلى أخر، فهو انتقال من اعتقاد إلى أخر، في جوهر المعبود . كلانتقال عن عبادة الاصنام، أو من عبادة آلهة عديدة، إلى إله مركب، ثم إلى إلاه واحد . ذلك هو التوحيد.
هنالك حجة أبين، هي أن تأويل الفروض الإسلامية وتفسيرها، لا نقضها ودحضها، اعتراف مبدئي بها. وليس كإكمال الناموس الذي جاء نقضاً جوهرياً له، كما نرى في تعاليم الإنجيل. وإن كان الدروز يعنون فريق الهدى منهم، إذ يرددون الحديث النبوي : " ... تفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في الهاوية إلا واحدة ". على ما في هذا الترديد من اجتزاء....

الدرزية إذن، في نظر السفير عبد الله النجار و عدد من الباحسين الدروز أمثاله هي بنت الإسلام. الدرزية ليست سوى بمذهب ومسلك من مسالك التوحيد الإسلامية ، انبثقت من الشيعة الفاطمية أبان خلافة تلك الأخيرة، فانطلقت من " قاهرة المعز " ... إلى باقي الأرجاء سواء في لبنان أو سوريا أو فلسطين أو الأردن.
الدرزية ليست بدين جديد أنما هي مذهب من مذاهب الاسلام .